كتاب إحياء علوم الدين
تأليف
حجة الأسلام
ابو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي
تغمده الله برحمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد

وهو الكتاب الثاني من ربع العبادات

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول:
الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام فنقول وبالله التوفيق الحمد لله المبدىء المعيد الفعال لما يريد ذي العرش المجيد والبطش الشديد الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلي لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدي لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال لا يقضي عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال بن هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم التنزيه وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل والأجسام ولا في التقدير ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال وفي صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار في دار القرار وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم الحياة والقدرة وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون في قبضته وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور لا تحصى مقدوراته ولا تتباهى معلوماته العلم وأنه عالم بجميع

المعلومات محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر في جو الهواء ويعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال الإرادة وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها مريدا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن السمع والبصر وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعرب عن سمعه مسموع وإن خفي ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق الكلام وأنه تعالى متكلم آمرناه واعد متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواه أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات الأفعال وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما وأنه عز وجل يثبت عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به معنى الكلمة الثانية وهي الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد

وهو قول لا إله إلا الله ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت وأوله سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك حديث سؤال منكر ونكير أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير وفي الصحيحين من حديث أنس إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه الحديث وهما فتانا القبر حديث إنهما فتانا القبر أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر أترد علينا عقولنا الحديث وسؤالهما أول فتنة بعد الموت حديث إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت لم أجده وأن يؤمن بعذاب القبر حديث عذاب القبر أخرجاه من حديث عائشة إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر وأنه حق وحكمة عدل على الجسم والروح على ما يشاء وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن الأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقا لتمام العدل وتوضح صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله حديث الإيمان بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طباق السموات والأرض أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان الحديث وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأن داود من حديث عائشة أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل زاد ابن مردويه في تفسيره قالت عائشة أي حتى قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء ويوضع في هذه الشيء فترجع إحداهما وتخف الأخرى والترمذي وحسنه من حديث أنس واطلبني عند الميزان ومن حديث عبد الله بن عمر في حديث البطاقة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة الحديث وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار حديث الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم ولهما من حديث أبي سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قال أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفي البعث من رواية عبد الله بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط حديث الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون أخرجه مسلم من حديث أنس في نزول إنا أعطيناك الكوثر هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة بن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطكم على الحوض ومن حديث ابن عمر أمالكم حوض كما بين جرباء وأدرج وقال الطبراني كما بينكم وبين جرباء وأدرج وهو الصواب وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس ابن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء حديث من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم

السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حـديث أنس فيه من الأبـاريق كعـدد نجـوم السماء وفي رواية لمسلم أكثر من عدد النجوم فيه ميزابان يصبان فيه من الكـوثر حـديث فيه ميزابان يصبان من الكوثر أخرجه مسلم من حديث ثوبان يغت فيه ميزابـان يمدانه من الجنة أحــدهما من ذهب والآخر من ورق وأن يــؤمن بالحســاب وتفــاوت النــاس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغـير حسـاب وهم المقربـون فيسأل الله تعالى حديث الإيمان بالحسـاب وتفـاوت الخلق فيه إلى منـاقش في الحسـاب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب أخرجه البيهقي في البعث من حـديث عمر فقال يا رسول الله ما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله وبـالموت والبعث من بعد المــوت والحســاب والجنة والنــار والقــدر كله الحــديث وهو عند مســلم دون ذكر الحساب وللشيخين من حـديث عائشة من نـوقش الحسـاب عـذب قـالت قلت يقـول الله تعالى فسوف يحاسب حسابا يسيرا قال ذلك العرض ولهما من حديث ابن عبــاس عرضت علي الأمم فقيل هــذه أمتك ومعهم ســبعون ألفا يــدخلون الجنة بغـير حسـاب ولا عــذاب ولمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمتي الجنة سـبعون ألفا بغـير حســاب زاد الــبيهقي في البعث من حــديث عمــرو بن حــزم وأعطــاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بعـده هـذه الزيـادة فقـال فهلا اسـتزدته قـال قد اسـتزدته فأعطـاني مع كل رجل سـبعين ألفا قـال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الـرحمن بن أبي بكر بين يديه الحـديث من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفـار عن تكـذيب المرسـلين حـديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شـاء من الكفـار عن تكـذيب المرسـلين أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد يدعى نوح يــوم القيامة فيقـول لبيك وسـعديك يا رب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولـون ما أتانا من نـذير فيقـول من يشـهد لك فيقول محمد وأمته الحديث ولابن ماجه يجيء النبي يــوم القيامة الحـديث وفيه فيقـال هل بلغت قومك الحديث ويسأل المبتدعة عن السـنة حـديث سـؤال المبتدعة عن السـنة رواه ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بشيء من القدر سـئل عنه يـوم القيامة ومن حـديث أبي هريرة ما من داع يـدعو إلى شـيء إلا وقف يـوم القيامة لازما لـدعوة ما دعا إليه وإن دعا رجل رجلا وإسنادهما ضعيف ويسأل المسلمين عن الأعمال حـديث سـؤال المسـلمين عن الأعمال أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي هريـرة إن أول ما يحاسب به العبد يـوم القيامة من عمله صلاته الحديث وسيأتي في الصلاة وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النــار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد حــديث إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النـار أمر الملائكة أن يخرجـوا من النـار من كـان لا يشـرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله الحديث وأن يؤمن بشـفاعة الأنبيـاء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سـائر المؤمـنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعـالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شـفيع أخـرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النـار مـؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمـنين ولم يكن لهم شـفيع أخـرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشـفع يـوم القيامة ثلاثة الأنبيـاء ثم العلمـاء ثم الشـهداء وقد تقدم في العلم وللشيخين من حديث أبي سـعيد الخـدري من وجـدتم في قلبه مثقـال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه وفي رواية من خـير وفيه فيقـول الله تعـالى شـفعت الملائكة وشفعت النـبيون وشـفع المؤمنـون ولم يبق إلا أرحم الـراحمين فيقبض قبضة من النار فيخـرج منها قوما لم يعملـوا خـيرا قط الحـديث وأن يعتقد فضل الصـحابة رضي الله عنهم وتــرتيبهم وأن أفضل النــاس بعد النــبي صــلى الله عليه وســلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم حديث أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسـلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي أخرجه البخاري من حـديث ابن عمر قـال كنا نخـير بين

الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسـلم فخـير أبا بكر ثم عمر بن الخطـاب ثم عثمـان بن عفـان ولأبي داود كنا نقـول ورسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حي أفضل أمة النـبي صـلى الله عليه وسـلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمـان رضي الله عنهم زاد الطـبراني ويسـمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكره وأن يحسن الظن بجميع الصـحابة ويثـني عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين حديث إحســان الظن بجميع الصحابة والثنـاء عليهم أخرجه الترمـذي من حـديث عبد الله ابن مغفل الله الله في أصـحابي لا تتخـذوهم غرضا بعـدي وللشـيخين من حـديث أبي سـعيد لا تسـبوا أصـحابي وللطـبراني من حـديث ابن مسـعود إذا ذكر أصـحابي فأمســكوا فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السـنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة فنسـأل الله كمـال اليقين وحسن الثبـات في الـدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى الفصل الثاني في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقــاد اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصـبي في أول نشـوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقـان والتصديق به وذلك مما يحصل في الصبي بغـير برهـان فمن فضل الله سـبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهـان وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العـوام مباديها التلقين المجـرد والتقليد المحض نعم يكـون الاعتقـاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصـبي والعـامي حـتى يترسخ ولا يـتزلزل وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صـنعة الجـدل والكلام بل يشـتغل بتلاوة القـرآن وتفسـيره وقـراءة الحـديث ومعانيه ويشـتغل بوظـائف العبـادات فلا يـزال اعتقـاده يـزداد رسـوخا بما يقـرع سـمعه من أدلة القـرآن وحججه وبما يـرد عليه من شـواهد الأحـاديث وفوائـدها وبما يسـطع عليه من أنـوار العبـادات ووظائفها وبما يسـرى إليه من مشـاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كإلقـاء بـذر في الصـدر وتكـون هـذه الأسـباب كالسـقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثـابت وفرعها في السماء وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فـإن ما يشوشه الجـدل أكثر مما يمهده وما يفسـده أكـثر مما يصـلحه بل تقويته بالجـدل تضـاهي ضـرب الشـجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكـثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسـدها وهو الأغلب والمشاهدة تكفيك في هذا بيانا فناهيك بالعيان برهانا فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحـارس اعتقـاده بتقسـيمات الجـدل كخيط مرسل في الهـواء تفيئه الريـاح مـرة هكـذا ومـرة هكـذا إلا من سـمع منهم دليل الاعتقـاد فتلقفه تقليـدا كما تلقف نفس الاعتقـاد تقليـدا إذ لا فـرق في التقليد بين تعليم الـدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شـيء والاسـتدلال بـالنظر شـيء آخر بعيد عنه ثم الصـبي إذا وقع نشوه على هذه العقيـدة إن اشـتغل بكسب الـدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسـلم في الآخـرة باعتقـاد أهل الحق إذ لم يكلف الشـرع أجلاف العـرب أكـثر من التصـديق الجـازم بظاهر هذه العقائد فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفـوه أصلا وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشـتغل بالعمل ولازم التقـوى ونهى النفس عن الهوى واشـتغل بالرياضة والمجاهـدة انفتحت له أبـواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسـبب المجاهـدة تحقيقا لوعـده عز وجل إذ قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين وهو الجـوهر النفيس الـذي هو غاية إيمـان الصـديقين والمقـربين وإليه الإشـارة بالسر الـذي وقر في صـدر أبي بكر الصـــديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق وانكشـــاف ذلك السر بل تلك الأســـرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجـات البـاطن في النظافة والطهـارة عما سـوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنـور اليقين وذلك كتفـاوت الخلق في أسـرار الطب والفقه وسـائر

العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه مسألة فإن قلت تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف فمن قائل إنه بدعة أو حرام وأن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمي المعتزلة يقول لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه وقال أيضا قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام وحكى الكرابيسي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا فقال حفص الفرد لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه وقال أيضا لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له قال الزعفراني قال الشافعي حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام وقال أحمد بن حنبل لا يفلح صاحب الكلام أبدا ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث وقال أحمد رحمه الله علماء الكلام زنادقة وقال مالك رحمه الله أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت وقال مالك رحمه الله أيضا لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء فقال بعض أصحابه في تأويله أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا وقال أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق وقال الحسن لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون حديث هلك المتنطعون أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود أي المتعمقون في البحث والاستقصاء واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستنجاء حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم حديث ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث وللترمذي من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت ونهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا حديث نهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا تقدم في العلم عن القدر وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريب إذا ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة

لاستعمالها في مباح وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعـني به إلا معرفة الـدليل على حدوث العـالم ووحدانية الخـالق وصـفاته كما جـاء في الشـرع فمن أين تحـرم معرفة الله تعالى بالدليل وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعـداوة والبغضـاء وما يفضي إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكـبر والعجب والريـاء وطلب الرياسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محـرم يجب الاحـتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى قل هاتوا برهانكم وقال عز وجل ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وقـال تعـالى هل عنـدكم من سـلطان بهـذا أي حجة وبرهـان وقـال تعـالى قل فلله الحجة البالغة وقال تعالى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه إلى قوله فبهت الـذي كفر إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصـمه في معـرض الثنـاء عليه وقـال عز وجل وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه وقال تعالى قـالوا يا نـوح قد جادلتنا فـأكثرت جـدالنا وقال تعالى في قصة فرعون وما رب العـالمين إلى قوله أولـوا جئتك بشـيء مـبين وعلى الجملة فـالقرآن من أوله إلى آخـره محاجة مع الكفـار فعمـده أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وفي النبوة وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وفي البعث قل يحييها الذي أنشأها أول مرة إلى غـير ذلك من الآيـات والأدلة ولم تـزل الرسل صـلوات الله عليهم يحـاجون المنكـرين ويجـادلونهم قـال تعالى وجادلهم بالتي هي أحسن فالصحابة رضي الله عنهم أيضا كـانوا يحـاجون المنكـرين ويجـادلون ولكن عند الحاجة وكـانت الحاجة إليه قليلة في زمـانهم وأول من سن دعـوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق علي ابن أبي طالب رضي الله عنه إذ بعث ابن عبـاس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال ما تنقمـون على إمـامكم قـالوا قاتل ولم يسب ولم يغنم فقال ذلك في قتال الكفار أرأيتم لو سـبيت عائشة رضي الله عنها في سـهم أحـدكم أكنتم تسـتحلون منها ما تسـتحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتـاب فقـالوا لا فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفـان وروى أن الحسن نـاظر قـدريا فرجع عن القـدر ونـاظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية وناظر عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه يزيد بن عميرة في الإيمان قال عبد الله لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة فقال له يزيد بن عمـيرة يا صـاحب رسـول الله هـذه زلة منك وهل الإيمـان إلا أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكـاة ولنا ذنـوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة فمن أجل ذلك نقـول إنا مؤمنـون ولا نقـول إنا من أهل الجنة فقال ابن مسعود صدقت والله إنها مني زلة فينبغي أن يقال كـان خوضـهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصـنيف والتـدريس واتخـاذه صـناعة فيقال أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذا لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمـان وأما القصر فقد كـان الغاية إفحـام الخصم واعترافه وانكشـاف الحق وإزالة الشـبهة فلو طـال إشـكال الخصم أو لجاجه لطـال لا محالة إلـزامهم وما كـانوا يقـدرون قـدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكـذا كـان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة الـتي لا تتفق إلا على الندور إما إدخار اليـوم وقوعها وإن كـان نـادرا أو تشـحيذا للخـواطر فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثـوران شـبهة أو هيجـان مبتـدع أو لتشـحيذ الخـاطر أو لادخـار الحجة حـتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجـال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتـال فهـذا ما يمكن أن يـذكر للفـريقين فـإن قلت فما المختـار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حـال أو بحمـده في كل حـال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كـالخمر والميتة وأعـني بقـولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسـكار والمـوت وهـذا إذا سـئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حـرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضـطرار وإباحة تجـرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحـرم لغـيره كـالبيع على بيع أخيك المسـلم في وقت الخيـار والـبيع وقت النـداء وكأكل الطين فإنه يحـرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حـرام كالسم الـذي

يقتل قليله وكثيره وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بـــالمحرور وكأكل الطين وكـــأن إطلاق التحـــريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال فإن تصـدى شـيء تقـابلت فيه الأحـوال فـالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفـاع حلال أو منـدوب إليه أو واجب كما يقتضـيه الحـال وهو باعتبـار مضـرته في وقت الاستضـرار ومحله حـرام أما مضـرته فإثـارة الشـبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالـدليل مشـكوك فيه ويختلف فيه الأشـخاص فهـذا ضـرره في الاعتقـاد الحق وله ضـرر آخر في تأكيد اعتقـاد المبدعة للبدعة وتثبيته في صـدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشـتد حرصـهم على الإصـرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعب الذي يثور من الجـدل ولـذلك تـرى المبتـدع العـامي يمكن أن يـزول اعتقـاده بـاللطف في أسـرع زمـان إلا إذا كـان نشـؤه في بلد يظهر فيها الجـدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولـون والآخـرون لم يقـدروا على نـزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجـادلين وفرقة المخـالفين يسـتولي على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطـاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه وهذا هو الداء العضـال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهـذا ضـرره وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهـات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن النـاس أعـداء ما جهلـوا فاسـمع هـــذا ممن خـــبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخـــبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجـاوز ذلك إلى التعمق في علـوم أخر تناسب نـوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقـائق المعرفة من هـذا الوجه مسـدود ولعمـري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمـور ولكن على النـدور في أمـور جلية تكـاد تفهم قبل التعمق في صـنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العـوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجـدل فـإن العـامي ضـعيف يسـتفزه جـدل المبتـدع وإن كـان فاسدا ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبـــدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكـون كـالطبيب الحـاذق في استعمال الـدواء الخطر إذ لا يضـعه إلا في موضـعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قـدر الحاجة وتفصيله أن العوام المشـتغلين بـالحرف والصـناعات يجب أن يـتركوا على سـلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرنـاه فـإن تعليمهم الكلام ضـرر محض في حقهم إذ ربما يثـير لهم شـكا ويزلـزل عليهم الاعتقـاد ولا يمكن القيـام بعد ذلك بالإصـلاح وأما العـامى المعتقد للبدعة فينبغي أن يـدعى إلى الحق بـالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحـديث الممـــزوج بفن من الوعظ والتحـــذير فـإن ذلك أنفع من الجـــدال الموضـــوع على شـــرط المتكلمين إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجـادلين من أهل مذهبه أيضا يقـدرون على دفعه فالجـدل مع هـذا ومع الأول حـرام وكـذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيـدة عن تعمق الكلام واستقصـاء الجـدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفـرض عـامي اعتقد البدعة بنـوع جـدل سـمعه فيقابل ذلك الجـــدل بمثله فيعـــود إلى اعتقـــاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية فقد انتهى هـذا إلى حالة لا يشـفيه منها إلا دواء الجـدل فجـاز أن يلقى إليه وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المـذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويـتربص وقـوع شـبهة فـإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخـاف على الصـبيان أن يخـدعوا فلا بـأس

أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجـادلات المبتدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فـإن كـان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سـؤال أو ثـارت في نفسه شـبهة فقد بـدت العلة المحـذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الاقتصـاد في الاعتقـاد وهو قـدر خمسـين ورقة وليس فيه خـروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غـير ذلك من مبــاحث المتكلمين فــإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صــارت العلة مزمنة والداء غالبا والمرض ساريا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضـاء الله تعـالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قـدر له فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه فأما الخارج منه فقسمان أحدهما بحث عن غـير قواعد العقائد كـالبحث عن الاعتمـادات وعن الأكـوان وعن الإدراكات وعن الخوض في الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى وإن كان فـذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئي يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهـات المضـلات والقسم الثـاني زيـادة تقرير لتلك الأدلة في غـير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضا استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضا ولو قـال قائل البحث عن حكم الإدراكـات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر والخـاطر آلة الـدين كالسـيف آلة الجهـاد فلا بـأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخـاطر فهو من الـدين أيضا وذلك هـوس فـإن الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهـذا القـدر المـذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التي يذم فيها والحال الـتي يحمد فيها والشـخص الـذي ينتفع به والشخص الذي لا ينتفع به فإن قلت مهما اعـترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصـير القيـام بهـذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما وما لم يشـتغل العلمـاء بنشر ذلك والتـدريس فيه والبحث عنه لا يـدوم ولو تـرك بالكلية لانـدرس وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شـبه المبتدعة ما لم يتعلم فينبغي أن يكـون التـدريس فيه والبحث عنه أيضا من فــروض الكفايــات بخلاف زمن الصـحابة رضي الله عنهم فــإن الحاجة ما كـــانت ماسة إليه فـــاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قـــائم بهـــذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة وذلك يـدوم بـالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسـير فـإن هـذا مثل الـدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الـدواء محـذور لما ذكرنا فيه من أنـواع الضـرر فالعـالم الذي ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال إحداها التجرد للعلم والحرص عليه فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشـكوك إذا عرضت الثانية الـذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يـرجى فيه نفعه الثالثة أن يكـون في طبعه الصـلاح والديانة والتقـوى ولا تكـون الشهوات غالبة عليه فإن الفاسق بأدنى شـبهة ينخلع عن الـدين فـإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع للسد الــذي بينه وبين الملاذ فلا يحــرص على إزالة الشــبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعبـاء التكليف فيكـون ما يفسـده مثل هـذا المتعلم أكـثر مما يصـلحه وإذا عـرفت هـذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القـرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلـوب المقنعة للنفـوس دون التغلغل في التقسـيمات والتدقيقات الـتي لا يفهمها أكـثر النـاس وإذا فهموها اعتقـدوا أنها شـعوذة وصـناعة تعلمها صاحبها للتلبيس فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجـرد له لما فيه من الضـرر الـذي نبهنا عليه وأن ما نقل عن ابن عبــــاس رضي الله عنهما من منــــاظرة الخـــــوارج وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كـان من الكلام الجلي الظـاهر وفي محل الحاجة وذلك محمـود في كل حـــال نعم قد تختلف الأعصـــار في كــثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضـال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقـائق ومعرفة الأشـياء على ما هي عليه وإدراك الأسـرار الـتي يترجمها

ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهـدة وقمع الشـهوات والإقبـال بالكلية على الله تعـالى وملازمة الفكر الصـافي عن شـوائب المجـادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعـرض لنفحاتها بقـدر الـرزق وبحسب التعـرض وبحسب قبـول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله مسألة فإن قلت هـذا الكلام يشير إلى أن هذه العلـوم لها ظـواهر وأسـرار وبعضـها جلي يبـدو أولا وبعضـها خفي يتضح بالمجاهـدة والرياضة والطلب الحـثيث والفكر الصـافي والسر الخـالي عن كل شـيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وبـاطن وسر وعلن بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه فاعلم أن انقسام هذه العلـوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذي تلقفوا في أوائل الصـبا شـيئا وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظـاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم إن للقـرآن ظـاهرا وباطنا وحـدا ومطلعا حـديث إن للقرآن ظاهرا وباطنا الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه من حـديث ابن مسـعود بنحـوه وقال علي رضي الله عنه وأشار إلى صدره إن ههنا علوما جمة لو وجـدت لها حملة وقـال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم النـاس على قـدر عقـولهم حـديث نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم الحديث تقـدم في العلم وقـال صـلى الله عليه وسـلم ما حـدث أحد قوما بحـديث لم تبلغه عقـولهم إلا كـان فتنة عليهم حديث ما حدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم الحديث تقدم في العلم وقال الله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون وقالصلى الله عليه وسلم إن من العلم كهيئة المكنـــون لا يعلمه إلا العـــالمون بالله تعـــالى حـــديث إن من العلم كهيئة المكنـــون الحديث تقدم في العلم الحـديث إلى آخـره كما أوردنـاه في كتـاب العلم وقـال صـلى الله عليه وسـلم لو تعلمـون ما أعلم لضـحكتم قليلا ولبكيتم كثـيرا حـديث لو تعلمـون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجاه من حديث عائشة وأنس فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهـام عن إدراكه أو لمعـنى آخر فلم لم يـذكره لهم ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم وقال ابن عبـاس رضي الله عنهما في قوله عز وجل الله الـــذي خلق ســـبع ســـموات ومن الأرض مثلهن يتـــنزل الأمر بينهن لو ذكـــرت تفســـيره لرجمتمـــوني وفي لفظ آخر لقلتم إنه كـــافر وقـــال أبو هريـــرة رضي الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعـاءين أما أحـدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هـذا الحلقوم وقال صلى الله عليه وسلم ما فضـلكم أبو بكر بكـثرة صـيام ولا صـلاة ولكن بسر وقر في صدره حديث ما فضلكم أبو بكر بكـثرة صـيام الحـديث تقـدم في العلم رضي الله عنه ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره وقال سـهل التسـتري رضي الله عنه للعـالم ثلاثة علوم علم ظـاهر يبذله لأهل الظـاهر وعلم بـاطن لا يسـعه إظهـاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد وقال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر وقـال بعضـهم للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبـوة وللنبـوة سر لو كشف لبطل العلم وللعلمـاء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكـام وهـذا القائل إن لم يـرد بـذلك بطلان النبـوة في حق الضـعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تنـاقص فيه وأن الكامل من لا يطفي نور معرفته نور ورعه وملاك الورع النبوة مسـألة فـإن قلت هـذه الآيـات والأخبـار يتطـرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فـإن البـاطن إن كـان مناقضا للظـاهر ففيه إبطال الشرع وهو قـول من قـال إن الحقيقة خلاف الشـريعة وهو كفر لأن الشـريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولا يكـون للشـرع سر لا يفشى بل يكـون الخفي والجلي واحد فـاعلم أن هـذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجر إلى علوم المكاشفة ويخـرج عن مقصـود علم المعاملة وهو غـرض هـذه الكتب فـإن العقائد الـتي ذكرناها من أعمـال القلـوب وقد تعبـدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشـطر الأول من الكتـاب وإنما الكشف الحقيقي هو

صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انجر الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجـيز في حله فمن قـال إن الحقيقة تخـالف الشـريعة أو البـاطن ينـاقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يختص بها المقربون يـدركها ولا يشـاركهم الأكـثرون في علمها ويمتنعـون عن إفشـائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسـام القسم الأول أن يكون الشـيء في نفسه دقيقا تكل أكـثر الأفهـام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشـوه إلى غـير أهله فيصـير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهـامهم عن الدرك وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن بيانه حـديث كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح أخرجه الشيخان من حـديث ابن مسـعود حين سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يـرد عليهم شـيئا الحديث من هذا القسم فـإن حقيقته بما تكل الأفهـام عن دركه وتقصر الأوهـام عن تصـور كنهه ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشـوفا لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فـإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسهفكيف يعرف ربه سـبحانه ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبيـاء ولكنهم يتـأدبون بـآداب الشرع فيسكتون عما سـكت عنه بل في صـفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهـام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم منها إلا الظـواهر للأفهـام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسـبة توهموها إلى علمهم وقـدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمـون ذلك بنـوع مقايسة ولو ذكر من صـفاته ما ليس للخلق مما يناسـبه بعض المناسـبة شـيء لم يفهمـوه بل لـذة الجمـاع إذا ذكرت للصبي أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق والمخالفة بين علم الله تعـالى وقدرته وعلم الخلق وقـدرتهم أكـثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل وبالجملة فلا يـدرك الإنسـان إلا نفسه وصـفات نفسه مما هي حاضرة له في الحـال أو مما كـانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغـيره ثم قد يصـدق بـأن بينهما تفاوتا في الشـرف والكمـال فليس في قـوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصـديق بـأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال ولذلك قال صـلى الله عليه وسـلم لا أحصي ثنـاء عليك أنت كما أثـنيت على نفسك حـديث لا أحصي ثنـاء عليك أنت كما أثـنيت على نفسك أخرجه مسـلم من حـديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده وليس المعنى أني أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله ولذلك قـال بعضهم ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل وقال الصـديق رضي الله عنه الحمد لله الـذي لم يجعل للخلق سـبيلا إلى معرفته إلا بـالعجز عن معرفته ولنقبض عنـان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم إن لله سبحانه وتعالى سبعين حجابا من نور لو كشـفها لأحـرقت سـبحات وجهه كل من أدركه بصره حديث إن لله سبعين حجابا من نور لو كشـفها لأحـرقت سـبحات وجهه ما أدركه بصره أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حـديث أبي هريـرة بين الله وبين الملائكة الذين حـول العـرش سـبعون حجابا من نـور وإسـناده ضـعيف وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال إن بيـني وبينه سبعين حجابا من نور وفي الأكبر للطبراني من حديث سهل بن سعد دون الله تعـالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبي موسى حجابه النور لو كشفه لأحـرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ولابن ماجه شـيء أدركه بصـره القسم الثـاني من الخفيـات الـتي تمتنع الأنبيـاء والصـديقون عن ذكرها ما هو مفهـوم في نفسه لا يكل الفهم عنه لكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين وسر القـدر الـذي منع أهل العلم من إفشـائه من هـذا القسم فلا يبعد أن يكـون ذكر بعض الحقـائق مضـرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الـورد بالجعل وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصي والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته

حق في نفسه وقد أضر سـماعه بقوله إذ أوهم ذلك عنـدهم أنه دلالة على السـفه ونقيض الحكمة والرضا بـالقبيح والظلم وقد ألحد ابن الراونـدي وطائفة من المخـذولين بمثل ذلك وكـذلك سر القـدر لو أفشى لأوهم عند أكـثر الخلق عجـزا إذ تقصر أفهـامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم ولو قال قائل إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سـنة أو أكـثر أو أقل لكـان مفهوما ولكن لم يـذكر لمصـلحة العبـاد وخوفا من الضـرر فلعل المـدة إليها بعيدة فيطـول الأمد وإذا اسـتبطأت النفـوس وقت العقـاب قل اكتراثها ولعلها كـانت قريبة في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمـال وخـربت الـدنيا فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسمالقسم الثالث أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سـبيل الاسـتعارة والرمز ليكـون وقعه في قلب المسـتمع أغلب وله مصـلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه كما لو قال قائل رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير فكـنى به عن إفشـاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظـاهر اللفظ والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در ولا كان في موضعه خـنزير تفطن لـدرك السر والبـاطن فيتفـاوت النـاس في ذلك ومن هـذا قـال الشـاعر رجلان خيـاط وآخر حائك متقـابلان على السـماك الأعـزل لا زال ينسج ذاك خرقة مـدبر ويخيط صـاحبه ثيـاب المقبل فإنه عـبر عن سـبب سـماوي في الإقبـال والإدبـار بـرجلين صـانعين وهـذا النـوع يرجع إلى التعبـير عن المعـنى بالصورة التي تتضمن عين المعـنى أو مثله ومنه قوله صـلى الله عليه وسـلم إن المسـجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلـدة على النـار حـديث إن المسـجد ليـنزوي من النخامة الحـديث لم أجد له أصلا وأنت تـرى أن سـاحة المسـجد لا تنقبض بالنخامة ومعنـاه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فهو تحقير له فيضـاد معـنى المسـجدية مضـادة النـار لاتصال أجزاء الجلدة وكذلك قوله صلى الله عليه وسـلم أما يخشى الـذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار حديث أما يخشى الـذي يرفع رأسه قبل الإمـام الحـديث أخرجـاه من حـديث أبي هريـرة وذلك من حيث الصـورة لم يكن قط ولا يكـون ولكن من حيث المعـنى هو كـائن إذ رأس الحمـار لم يكن بحقيقته لكونه وشـكله بل بخاصـيته وهي البلادة والحمق ومن رفع رأسه قبل الإمـام فقد صـار رأسه رأس حمـار في معـنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتـداء وبين التقـدم فإنهما متناقضـان وإنما يعـرف أن هـذا السر على خلاف الظـاهر إما بدليل عقلي أو شرعي أما العقلي فأن يكـون حمله على الظـاهر غـير ممكن كقوله صـلى الله عليه وسـلم قلب المـؤمن بين أصـبعين من أصـابع الـرحمن حـديث قلب العبد بين أصبعين من أصابع الـرحمن أخرجه مسـلم من حـديث عبد الله بن عمـرو إذ لو فتشـنا عن قلـوب المؤمـنين لم نجد فيها أصـابع فعلم أنها كناية عن القـدرة الـتي هي سر الأصـابع وروحها الخفي وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهم تمام الاقتدار ومن هذا القبيل في كنايته عن الاقتدار قوله تعالى إنما قولنا لشـيء إذا أردنـاه أن نقـول له كن فيكون فـإن ظـاهره ممتنع إذ قوله كن إن كـان خطابا للشـيء قبل وجـوده فهو محـال إذا المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجـود فهو مسـتغن عن التكـوين ولكن لما كـانت هـذه الكناية أوقع في النفـوس في تفهيم غاية الاقتـدار عـدل إليها وأما المـدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يـروى أنه أريد به غـير الظـاهر كما ورد في تفسير قوله تعـالى أنـزل من السـماء مـاء فسـالت أودية بقـدرها الآية وأن معـنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هي القلـوب وأن بعضـها احتملت شـيئا كثـيرا وبعضـها قليلا وبعضـها لم يحتمل والزبد مثل الكفر والنفـاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس المـاء فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث وفي هـذا القسم تعمق جماعة فـأولوا ما ورد في الآخـــرة من المـــيزان والصـــراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجـراؤه على الظـاهر غـير محـال فيجب إجـراؤه على الظـاهر القسم الرابع أن يـدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكـون الأول كالقشر والثـاني كاللبـاب والأول كالظـاهر والثـاني كالباطنوذلك كما يتمثل للإنسـان في عينه شـخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نـوع علم فـإذا رآه

بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو اســتكمال له فكذلك العلم والإيمان والتصديق إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمـرض والمـوت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقـــوع أكمل من تحققه قبل الوقـــوع بل للإنســـان في الشـهوة والعشق وسـائر الأحـوال ثلاثة أحـوال متفاوتة وإدراكـات متباينة الأول تصـديقه بوجوده قبل وقوعه والثاني عند وقوعه والثالث بعد تصرفه فـإن تحققك بـالجوع بعد زواله يخـالف التحقيق قبل الـزوال وكـذلك من علـوم الـدين ما يصـير ذوقا فيكمل فيكـون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ففرق بين علم المريض بالصـحة وبين علم الصـحيح بها ففي هذه الأقسام الأربعة تتفـاوت الخلق وليس في شـيء منها بـاطن ينـاقض الظـاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام الخامس أن يعـبر بلسـان المقـال عن لسـان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا والبصـير بالحقـائق يـدرك السر فيه وهذا كقول القائل قـال الجـدار للوتد لم تشـقني قـال سل من يـدقني فلم يتركـني ورائي الحجر الذي ورائي فهذا تعبـير عن لسـان الحـال بلسـان المقـال ومن هـذا قوله تعـالى ثم اسـتوى إلى السـماء وهي دخـان فقـال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طـائعين فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقـدر لهما حيـاة وعقلا وفهما للخطـاب وخطابا هو صـوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان أتينا طائعين والبصـير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضـطرتين إلى التسـخير ومن هـذا قوله تعـالى وإن من شـيء إلا يسـبح بحمـده فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقـدر للجمـادات حيـاة وعقلا ونطقا بصـوت وحـرف حـتى يقـول سـبحان الله ليتحقق تسـبيحه والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسـان بل كونه مسـبحا بوجـوده ومقدسا بذاته وشـاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقال وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد وكما يقـال هـذه الصـنعة المحكمة تشـهد لصـانعها بحسن التـدبير وكمـال العلم لا بمعـنى أنها تقـول أشـهد بـالقول ولكن بالـذات والحـال وكـذلك ما من شـيء إلا وهو محتـاج في نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يـدرك شـهادته ذوو البصـائر دون الجامـدين على الظـواهر ولـذلك قـال تعـالى ولكن لا تفقهـون تسبيحهم وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا وأما المقربون والعلماء الراسـخون فلا يفقهـون كنهه وكماله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقـديس الله سـبحانه وتسـبيحه ويـدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته وتعداد تلك الشـهادات لا يليق بعلم المعاملة فهـذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأربـاب البصـائر في علمه وتظهر به مفارقة البـاطن للظـاهر وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسـراف واقتصـاد فمن مسـرف في رفع الظـواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والـبراهين أو أكثرها حـتى حملـوا قوله تعـالى وتكلمنا أيـديهم وتشـهد أرجلهم وقوله تعـالى وقـالوا لجلـودهم لم شـهدتم علينا قـالوا أنطقنا الله الـذي أنطق كل شيء وكذلك المخاطبات التي تجـري من منكر ونكـير وفي المـيزان والصـراط والحسـاب ومنـاظرات أهل النـار وأهل الجنة في قـولهم أفيضـوا علينا من المـاء أو مما رزقكم الله زعموا أن ذلك كله بلسان الحـال وغلا آخـرون في حسم البـاب منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه حتى منع تأويل قوله كن فيكون وزعموا أن ذلك خطاب بحـرف وصـوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون مكون حتى سمعت بعض أصحابه يقـول إنه حسم بـاب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قولهصلى الله عليه وسلم الحجر الأسود يمين الله في أرضه حديث الحجر يمين الله في الأرض أخرجه الحـاكم وصـححه من حـديث عبد الله بن عمر وقوله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمنين بين أصبعين من أصابع الرحمن وقوله صلى الله عليه وسلم إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين حديث إني لأجد نفس الـرحمن من جـانب اليمين أخرجه أحمد من حـديث أبي هريـرة في حـديث قـال فيه وأجد نفس ربكم من قبل اليمن ورجاله ثقات ومـال إلى حسم البـاب أربـاب الظـواهر والظن بأحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والـنزول ليس هو الانتقـال ولكنه منع من التأويل حسما للباب ورعاية لصلاح الخلق فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخـرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الإقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون أمروها كما جـاءت حـتى قـال مالك رحمه الله لما سـئل

عن الاســتواء الاســتواء معلــوم والكيفية مجهولة والإيمــان به واجب والســؤال عنه بدعة وذهبت طائفة إلى الاقتصــاد وفتحــوا بــاب التأويل في كل ما يتعلق بصــفات الله ســبحانه وتركــوا ما يتعلق بــالآخرة على ظواهرها ومنعــوا التأويل فيه وهم الأشــعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكــام الآخــرة ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق بحــرق الجلــود ويــذيب الشــحوم ومن تــرقيهم إلى هــذا الحد زاد الفلاســفة فــأولوا كل ما ورد في الآخــرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقــالوا ببقــاء النفــوس وأنها تكــون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهــؤلاء هم المســرفون وحد الاقتصــاد بين هــذا الانحلال كله وبين جمــود الحنابلة دقيق غــامض لا يطلع عليه إلا الموفقــون الــذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع ثم إذا انكشــفت لهم أســرار الأمــور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الــواردة فما وافق ما شــاهدوه بنــور اليقين قــرروه وما خــالف أولوه فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف والألبق بالمقتصر على الســمع المجــرد مقــام أحمد بن حنبل رحمه الله والآن فكشف الغطــاء عن حد الاقتصــاد في هــذه الأمــور داخل في علم المكاشــفة والقــول فيه يطــول فلا نخــوض فيه والغــرض بيــان موافقة البــاطن الظــاهر وأنه غــير مخــالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمــور كثــيرة وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العــوام على ترجمة العقيــدة الــتي حررناها وأنهم لا يكلفــون غــير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كــان خــوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غــير تعمق فلنــورد في هــذا الكتــاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ما حررنــاه لأهل القدس وسميناه الرسالة القدســية في قواعد العقائد وهي مودعة في هــذا الفصل الثــالث من هــذا الكتــاب الفصل الثــالث من كتــاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيــدة الــتي ترجمناها بالقدس فنقــول بسم الله الــرحمن الــرحيم الحمد لله الــذي مــيز عصــابة الســنة بــأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعــائم الــدين وجنبهم زيغ الــزائغين وضــلال الملحدين ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين وســددهم للتأسي بصــحبة الأكــرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلفالصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقــول بالحبل المــتين ومن ســير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقــول وتحققــوا أن النطق بما تعبــدوا به من قــول لا إله إلا الله محمد رســول الله ليس له طائل ولا محصــول إن لم تتحقق الإحاطة بما تــدور عليه هــذه الشــهادة من الأقطــاب والأصــول وعرفوا أن كلمــتي الشــهادة على إيجازها تتضــمن إثبــات ذات الإله وإثبــات صــفاته وإثبــات أفعاله وإثبات صدق الرسول وعلموا أن بناء الإيمــان على هــذه الأركــان وهي أربعة ويــدور كل ركن منها على عشــرة أصــول الــركن الأول في معرفة ذات الله تعــالى ومــداره على عشــرة أصــول وهي العلم بوجــود الله تعــالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجــوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مســتقرا على مكــان وأنه يــرى وأنه واحد الــركن الثــاني في صــفاته ويشــتمل على عشــرة أصــول وهو العلم بكونه حيا عالما قــادرا مريــدا ســميعا بصــيرا متكلما منزها عن حلــول الحــوادث وأنه قــديم الكلام والعلم والإرادة الــركن الثالث في أفعاله تعالي ومداره على عشرة أصول وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعبــاد وأنها مــرادة لله تعــالى وأنه متفضل بــالخلق والاخــتراع وأن له تعــالى تكليف ما لا يطـــاق وأن له إيلام الـــبريء ولا يجب عليه رعاية الأصـــلح وأنه لا واجب إلا بالشــرع وأن بعثة الأنبيــاء جــائزة وأن نبــوة نبينا محمد صــلى الله عليه وســلم ثابتة مؤيــدة بــالمعجزة الــركن الرابع في الســمعيات ومــداره على عشــرة أصــول وهي إثبــات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والمــيزان والصــراط وخلق الجنة والنــار وأحكــام الإمامة وأن فضل الصــحابة على حسب تــرتيبهم وشــروط الإمامة فأما الــركن الأول من أركــان الإيمــان في معرفة ذات الله ســبحانه وتعــالى وأن الله تعــالى واحد ومــداره على عشرة أصول الأصل الأول معرفة وجوده تعالى وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من

طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا وقال تعالى إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون وقال تعالى ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا وقال تعالى أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون إلى قوله للمقوين فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره ولذلك قال الله تعالى أفي الله شك فاطر السموات والأرض ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا لا إله إلا الله وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدأ نشؤهم وفي عنفوان شبابهم ولذلك قال عز وجل ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله وقال تعالى:)فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم(فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول من بدائه العقول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه والعالم حادث فإذا لا يستغنى في حدوثه عن سبب أما قولنا إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب فجلي فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص وأما قولنا العالم حادث فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى الأولى قولنا إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فإن من عقل جسما لا ساكنا ولا متحركا كان لمتن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا الثانية قولنا إنهما حادثان ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارىء منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس الثالثة قولنا ما لايخلو عن الحوادث فهو حادث وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترا أو شفعا ووترا جميعا أو لا شفعا ولا وترا ومحال أن يكون شفعا ووترا جميعا أو لا شفعا ولا وترا فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر ومحال أن يكون شفعا لأن الشفع يصير وترا بزيادة واحد وكيف يعوز ما لا نهاية له واحد ومحال أن يكون وترا إذ الوتر يصير شفعا بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها ومحال أن يكون لا شفعا ولا وترا إذ له نهاية فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة الأصل الثاني العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحي وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم

ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه الأصل الثـالث العلم بأنه تعـالى مع كونه أزليا أبـديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظـاهر والبـاطن لأن ما ثبت قدمه اسـتحال عدمه وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعـدم يضـاده ولو جـاز أن ينعـدم شـيء يتصـور دوامه لجـاز أن يوجد شـيء يتصـور عدمه بنفسه فكما يحتـاج طريـان الوجـود إلى سـبب فكـذلك يحتـاج طريـان العـدم إلى سـبب وباطل أن ينعـدم بمعـدم يضـاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصـور الوجـود معه وقد ظهر بالأصـلين السـابقين وجـوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده فإن كـان الضد المعـدم حادثا كـان محـالا إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حـتى يـدفع وجـوده بل الـدفع أهـون من القطع والقـديم أقـوى وأولى من الحـادث الأصل الرابع العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقـدس عن مناسـبة الحـيز وبرهانه أن كل جوهر متحـيز فهو مختص بحـيزه ولا يخلو من أن يكـون سـاكنا فيه أو متحركا عنه فلا يخلو عن الحركة أو السكونوهما حادثان وما لا يخلو عن الحـوادث فهو حـادث ولو تصـور جـوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماه مسم جوهرا ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعـنى الأصل الخـامس العلم بأنه تعـالى ليس بجسم مؤلف من جـواهر إذ الجسم عبـارة عن المؤلف من الجـواهر وإذا بطل كونه جـوهرا مخصوصا بحيز بطل كونه جسما لأن كل جسم مختص بحـيز ومـركب من جـوهر فـالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتمـاع والحركة والسـكون والهيئة والمقـدار وهـذه سـمات الحدوث ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجـاز أن يعتقد الإلهية للشـمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام فـإن تجاسر متجاسر على تسـميته تعـالى جسـما من غـير إرادة التـأليف من الجـواهر كـان ذلك غلطا في الاسم مع الإصـابة في نفي معـنى الجسم الأصل السادس العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل لأن العـرض ما يحل في الجسم فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكـون محدثه موجـودا قبله فكيف يكـون حـالا في الجسم وقد كـان موجـودا في الأزل وحـده وما معه غـيره ثم أحـدث الأجسـام والأعراض بعده ولأنه عالم قادر مريد خالق كما سيأتي بيانه وهذه الأوصاف تسـتحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجـود قـائم بنفسه ليس بجـوهر ولا جسم ولا عـرض وأن العـالم كله جـواهر وأعـراض وأجسام فإذا لا يشبه شـيئا ولا يشـبهه شـيء بل هو الحي القيـوم الـذي ليس كمثله شـيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصـور مصـوره والأجسـام والأعـراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشـابهته الأصل السـابع العلم بـأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات فإن الجهة إما فـوق وإما أسـفل وإما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف وهـذه الجهـات هو الـذي خلقها وأحـدثها بواسـطة خلق الإنسـان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا والآخر يقابله ويسمى رأسا فحدث اسم الفـوق لما يلي جهة الـرأس واسم السـفل لما يلي جهة الرجل حـتى إن النملة الـتي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتا وإن كـان في حقنا فوقا وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى في الغـالب فحـدث اسم اليمين للأقـوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة الـتي تلي اليمين يمينا والأخـرى شـمالا وخلق له جـانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القـدام للجهة الـتي يتقـدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها فالجهات حادثة بحـدوث الإنسـان ولو لم يخلق الإنسـان بهـذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجـود البتة فكيف كـان في الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة وكيف صـار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له أبـأن خلق العـالم فوقه ويتعـالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبـارة عما يكـون جهة الـرأس أو خلق العـالم تحته فتعـالى عن أن يكـون له تحت إذ تعـالى عن أن يكـون له رجل والتحت عبـارة عما يلي جهة الرجل وكل ذلك مما يسـتحيل في العقل ولأن المعقـول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصـاص العـرض وقد ظهر اسـتحالة كونه جـوهرا أو عرضا فاسـتحال كونه مختصا بالجهة وإن أريد بالجهة غـير هذين المعنيين كان غلطا في الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كـان فـوق العـالم

لكان محاذيا له وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكـبر وكل ذلك تقـدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السـماء فهو لأنها قبلة الـدعاء وفيه أيضا إشـارة إلى ما هو وصف للمـدعو من الجلال والكبريـاء تنبيها بقصد جهة العلو على صـفة المجد والعلاء فإنه تعـالى فـوق كل موجود بالقهر والاستيلاء الأصل)8 (الثـامن العلم بأنه تعـالى مسـتو على عرشه بـالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء وهو الـذي لا ينـافي وصف الكبريـاء ولا يتطـرق إليه سـمات الحدوث والفناء وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن ثم اسـتوى إلى السماء وهي دخان وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق واضطر أهل الحق إلى هـذا التأويل كما التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعـالى وهو معكم أينما كنتم إذ حمل ذلك بالاتفـاق على الإحاطة والعلم وحمل قوله صـلى الله عليه وسـلم قلب المـؤمن بين أصـبعين من أصـابع الرحمن على القـدرة والقـوة وحمل قوله صـلى الله عليه وسـلم الحجر الأسـود يمين الله في أرضه على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كـون المتمكن جسـما مماسا للعـرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محـال وما يـؤدي إلى المحـال فهو محـال الأصل التاسع العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقـدار مقدسا عن الجهـات والأقطـار مـرئي بـالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعـالى وجـوه يومئذ ناضـرة إلى ربها نـاظرة ولا يرى في الدنيا تصديقا لقوله عز وجل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام لن تـراني وليت شـعري كيف عـرف المعـتزل من صـفات رب الأربـاب ما جهله موسى عليه السـلام وكيف سـأل موسى عليه السـلام الرؤية مع كونها محالا ولعل الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم وأما وجه إجـراء آية الرؤية على الظـاهر فهو أنه غـير مـؤد إلى المحـال فـإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة وكما يجوز أن يـرى الله تعـالى الخلق وليس في مقـابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة وكما جاز أن يعلم من غـير كيفية وصـورة جـاز أن يـرى كذلك الأصل العاشر العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فـرد لا ند له انفـرد بـالخلق والإبداع واستند بالإيجـاد والاختـراع لا مثل له يسـاهمه ويسـاويه ولا ضد له فينازعه ويناويه وبرهانه قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وبيانه أنه لو كانا اثـنين وأراد أحـدهما أمرا فالثاني إن كان مضطرا إلى مسـاعدته كـان هـذا الثـاني مقهـورا عـاجزا ولم يكن إلها قادرا وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثـاني قويا قـاهرا والأول ضـعيفا قاصـرا ولم يكن إلها قـادرا الـركن الثـاني العلم بصـفات الله تعـالى ومـداره على عشـرة أصـول الأصل الأول العلم بأن صـانع العـالم قـادر وأنه تعـالى في قوله وهو على كل شـيء قـدير صادق لأن العالم محكم في صنعته مرتب في خلقته ومن رأى ثوبا من ديبـاج حسن النسج والتـأليف متناسب التطريز والتطريف ثم تـوهم صـدور نسـجه عن ميت لا اسـتطاعة له أو عن إنسـان لا قـدرة له كـان منخلعا عن غريـزة العقل ومنخرطا في سـلك أهل الغبـاوة والجهل الأصل الثاني العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجـودات ومحيط بكل المخلوقـات لا يعـزب عن علمه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السـماء صـادق في قوله وهو بكل شـيء عليم ومرشد إلى صـدقه بقوله تعـالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبـير أرشـدك إلى الاسـتدلال بـالخلق على العلم بأنك لا تسـتريب في دلالة الخلق اللطيف والصـنع المـزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الـترتيب والترصـيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف الأصل الثالث العلم بكونه عز وجل حيا فإن من ثبتعلمه وقدرته ثبت بالضـرورة حياته ولو تصـور قـادر وعـالم فاعل مـدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك في حيـاة الحيوانـات عند ترددها في الحركـات والسـكنات بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضـلالات الأصل الرابع العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مسـتند إلى مشـيئته وصـادر عن إرادته فهو المبدىء المعيد والفعـال لما يريد وكيف لا يكـون مريـدا وكل فعل صـدر منه أمكن أن

يصدر منه ضده وما لا ضد له أمكن أن يصـدر منه ذلك بعينه قبله أو بعـده والقـدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحـدة فلا بد من إرادة صـارفة للقـدرة إلى أحد المقـدورين ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حـتى يقـال إنما وجد في الـوقت الـذي سـبق بوجوده لجاز أن يغني عن القدرة حتى يقال وجد بغـير قـدرة لأنه سـبق العلم بوجـوده فيه الأصل الخامس العلم بأنه تعالى سميع بصـير لا يعـزب عن رؤيته هـواجس الضـمير وخفايا الوهم والتفكـير ولا يشذ عن سـمعه صـوت دبيب النملة السـوداء في الليلة الظلمـاء على الصخرة الصماء وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسـمع والبصر كمـال لا محالة وليس بنقص فكيف يكون المخلـوق أكمل من الخـالق والمصـنوع أسـنى وأتم من الصـانع وكيف تعتـدل القسـمة مهما وقع النقص في جهته والكمـال في خلقه وصـنعته أو كيف تسـتقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصـنام جهلا وغيا فقـال له لم تعبد ما لا يسـمع ولا يبصر ولا يغـني عنك شـيئا ولو انقلب ذلك عليه في معبـوده لأضـحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعـالى وتلك حجتنا آتيناها إبـراهيم على قومه وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصـيرا بلا حدقة وسـميعا بلا أذن إذ لا فـرق بينهما الأصل السـادس أنه سـبحانه وتعـالى متكلم بكلام وهو وصف قـائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشـبه وجـوده وجـود غـيره والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصـوات قطعت حروفا للـدلالات كما يـدل عليها تـارة بالحركـات والإشـارات وكيف التبس هـذا على طائفة من الأغبيـاء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم إن الكلام لفي الفـؤاد وإنما جعل اللسـان على الفـؤاد دليلا ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول لساني حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه لسانك ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء وأن البـاء قبل السـين في قولك بسم الله فلا يكـون السـين المتـأخر عن الباء قديما فنزه عن الالتفات إليه قلبك فلله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ومن يضـلل الله فما له من هاد ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى في الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لـون وإن عقل أن يـرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قـدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غـيره فليعقل في حاسة السـمع ما عقله في حاسة البصر وإن عقل على أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صـفة واحـدة للـذات هو كلام بجميع ما دل عليه من العبـارات وإن عقل كـون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مـرئي في مقـدار عدسة من الحدقة من غـير أن تحل ذات السـموات والأرض والجنة والنـار في الحدقة والقلب والورقة فليعقل كـون الكلام مقـروءا بالألسـنة محفوظا في القلـوب مكتوبا في المصـاحف من غـير حلـول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الـورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ولاحـترق الأصل السـابع أن الكلام القـائم بنفسه قـديم وكـذا جميع صفاته إذ يسـتحيل أن يكـون محلاللحـوادث داخلا تحت التغـير بل يجب للصـفات من نعوت القدم ما يجب للـذات فلا تعتريه التغـيرات ولا تحله الحادثـات بل لم يـزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزل في أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كـان محل الحـوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحـوادث فهو حـادث وإنما ثبت نعت الحـدوث للأجسـام من حيث تعرضـها للتغـير وتقلب الأوصـاف فكيف يكـون خالقها مشـاركا لها في قبول التغير وينبني على هذا أن كلامه قديم قـائم بذاته وإنما الحـادث هي الأصـوات الدالة عليه وكما عقل قيـام طلب التعلم وإرادته بـذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولـده حـتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الـذي قـام بـذات أبيه ودام وجـوده إلى وقت معرفة ولـده له فليعقل قيـام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل اخلع نعليك بذات الله ومصير موسى عليه السـلام مخاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسـمع لـذلك الكلام القـديم الأصل الثـامن أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم به بقدوم زيد

عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى الأصل التاسع أن إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحـداث الحـوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحـوادث ولو حـدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكـون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى وكـذلك الإرادة الأخـرى تفتقر إلى أخـرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ولو جاز أن يحدث إرادة بغـير إرادة لجـاز أن يحـدث العـالم بغـير إرادة الأصل العاشر أن الله تعالى عالم بعلم حي بحياة قـادر بقـدرة ومريد بـإرادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة وقول القائل عـالم بلا علم كقوله غني بلا مال وعلم بلا عـالم وعـالم بلا معلـوم فـإن العلم والمعلـوم والعـالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل وكما لا يتصـور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصـور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عـالم بلا علم ولا علم بلا معلـوم ولا معلـوم بلا عـالم بل هـذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العـالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف الـركن الثـالث العلم بأفعـال الله تعـالى ومـداره على عشـرة أصـول الأصل الأول العلم بـأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا خـالق له سـواه ولا محـدث له إلا إيـاه خلق الخلق وصنعهم وأوجد قـدرتهم وحـركتهم فجميع أفعـال عبـاده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له في قوله تعالى الله خالق كل شيء وفي قوله تعـالى والله خلقكم وما تعملـون وفي قوله تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبـير أمر العبـاد بـالتحرز في أقـوالهم وأفعـالهم وإسـرارهم وإضـمارهم لعلمه بموارد أفعالهم واستدل على العلم بالخلق وكيف لا يكـون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لـذاتها فما الـــذي يقصر تعلقها عن بعض الحركـــات دون البعض مع تماثلها أو كيف يكـــون الحيـــوان مستبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطـائف الصـناعات ما يتحـير فيه عقـول ذوي الألبـاب فكيف انفـردت هي باختراعها دون رب الأربـاب وهي غـير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب هيهات هيهـات ذلت المخلوقـات وتفـرد بالملك والملكوتجبار الأرض والسموات الأصل الثاني أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقـدورة للعبـاد على سـبيل الاكتسـاب بل الله تعـالى خلق القـدرة والمقـدور جميعا وخلق الاختيـار والمختـار جميعا فأما القـدرة فوصف للعبد وخلق للـرب سـبحانه وليست بكسب له وأما الحركة فخلق للـرب تعـالى ووصف للعبد وكسب له فإنها خلقت مقـدورة بقـدرة هي وصـفه وكـانت للحركة نسـبة إلى صـفة أخـرى تسـمى قـدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسـبا وكيف تكـون جـبرا محضا وهو بالضـرورة يـدرك التفرقة بين الحركة المقـــدورة والرعـــدة الضـــرورية أو كيف يكـــون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسـبة وأعـدادها وإذا بطل الطرفـان لم يبق إلا الاقتصـاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقـدور أن يكـون بـالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كـانت متعلقة بالعـالم ولم يكن الاخـتراع حاصلا بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها الأصل الثالث أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخـرج عن كونه مـرادا لله سبحانه فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضـاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسـلام والكفر والعرفـان والنكر والفـوز والخسـران والغواية والرشد والطاعة والعصـيان والشـرك والإيمـان لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسـألون ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقول الله عز وجل أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ويـدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريـدها وإنما هي جارية على

وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له فإن قيل فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد قلنا الأمر غير الإرادة ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه فقال له أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لايريد امتثاله ولو لم يكن آمرا لما كان عذره عند السلطان ممهدا ولو كان مريدا لامتثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال الأصل الرابع أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال إذ هو الموجب والآمر والناهي وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب والمراد بالواجب أحد أمرين إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار أو ضرر عاجل كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأولفقد عرضه للضرر وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وإن أراد به معنى ثالثا فهو غير مفهوم وقوله يجب لمصلحة عباده كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب الأصل الخامس أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه خلافا للمعتزلة ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده الأصل السادس أن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافا للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة فإن قيل إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه فقول من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المذكورة للواجب الأصل السابع أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله إن الأصلح واجب عليه في مسألة نعرضها عليه وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ويجب عليه ذلك عند المعتزلي فلو قال الصبي يا رب لم رفعت منزلته علي فيقول لأنه بلغ واجتهد في الطاعات ويقول الصبي أنت أمتني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته فيقول الله تعالى لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت

فكان الأصلح لك الموت في الصبا هـذا عـذر المعـتزلي عن الله عز وجل وعند هـذا ينـادى الكفار من دركات لظى ويقولون يا رب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصـبا فإنا رضـينا بما دون منزلة الصـبي المسـلم فبمـاذا يجـاب عن ذلك وهل يجب عند هـذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعـتزال فـإن قيل مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسـباب العـذاب كـان ذلك قبحا لا يليق بالحكمة قلنا القبح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشـيء قبيحا عند شـخص حسـنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه فإن أريد بـالقبيح ما لا يوافق غـرض البـاري سـبحانه فهو محـال إذ لا غـرض له فلا يتصور منه قبح كما لا يتصـور منه ظلم إذ لا يتصـور منه التصـرف في ملك الغـير وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال وهل هذا إلا مجرد تشه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكــام فعلها على وفق إرادته وهــذا من أين يــوجب رعايةالأصــلح وأما الحكيم منا يراعي الأصـلح نظـرا لنفسه ليسـتفيد به في الـدنيا ثنـاء وفي الآخـرة ثوابا أو يـدفع به عن نفسه آفة وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى الأصل الثـامن أن معرفة الله سـبحانه وطاعته واجبة بإيجـاب الله تعـالى وشـرعه لا بالعقل خلافا للمعتزلة لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائـدة وهو محـال فـإن العقل لا يـوجب العبث وإما أن يوجبها لفائدة وغـرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبـود وذلك محـال في حقه تعـالى فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد بل الكفر والإيمـان والطاعة والعصـيان في حقه تعـالى سيان وإما أن يرجع ذلك إلى عـرض العبد وهو أيضا محـال لأنه لا غـرض له في الحـال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات لسببه وليس في المآل إلا الثواب والعقـاب ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصـية في حقه يتساويان إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تميـيز ذلك بالشرع ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفـرق بين الشـكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلـذذ بأحـدهما دون الآخر فـإن قيل فـإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشـرع لا يسـتقر ما لم ينظر المكلف فيه فـإذا قـال المكلف للنبي إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر أدى ذلك إلى إفحام الرسـول صـلى الله عليه وسـلم قلنا هـذا يضـاهي قـول القائل للواقف في موضع من المواضع إن وراءك سبعا ضاريا فإن لم تبرح عن المكـان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقي فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي ولا أنظر ما لم يثبت صدقك فيدل هذا على حماقة هـذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد فكـذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم يقـول إن وراءكم الموت ودونه السـباع الضـارية والنـيران المحرقة إن لم تأخـذوا منها حـذركم وتعرفـوا لي صدقي بالالتفـات إلى معجـزتي وإلا هلكتم فمن التفت عـرف واحـترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتـردى ولا ضـرر علي إن هلك النـاس كلهم أجمعـون وإنما علي البلاغ المـبين فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكــان ما يقوله في المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ومعـنى كـون الشـيء واجبا أن في تركه ضـررا ومعـنى كـون الشـرع موجبا أنه معـرف للضـرر المتوقع فـإن العقل لا يهـدى إلى التهـدف للضـرر بعد المـوت عند اتبـاع الشـهوات فهـذا معـنى الشـرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ولولا خوف العقاب على تـرك ما أمر به لم يكن الوجـوب ثابتا إذ لا معـنى للـواجب إلا ما يرتبط بتركه ضـرر في الآخـرة الأصل التاسع أنه ليس يسـتحيل بعثة الأنبيــاء عليهم السـلام خلافا للبراهمة حيث قــالوا لا فائــدة في بعثتهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدى إلى الأفعـال المنجية في الآخـرة كما لا يهـدى إلى الأدوية المفيدة للصحة فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطـبيب بالتجربة ويعـرف صـدق النـبي بـالمعجزة الأصل العاشر أن الله سـبحانه قد أرسل محمـدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين وأيده بالمعجزات الظـاهرة والآيـات البـاهرة كانشـقاق القمر حـديث انشـقاق القمر متفق

عليه من حـديث أنس وابن مسـعود وابن عبـاس وتسـبيح الحصى حـديث تسـبيح الحصى أخرجه الـبيهقي في دلائل النبـوة من حـديث أبي ذر وقــال صــالح بن أبي الأخضر ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر وإنطاق العجماء حـديث إنطاق العجماء أخرجه أحمد والبيهقي بإسـناد صـحيح من حـديث يعلى بن مـرة في البعـير الذي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله وقد ورد في كلام الضب والذئب والحمـرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل وما تفجر من بين أصـابعه من المـاء ومن آياته الظـاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيمفإنهم مع تمييزهم بالفصـاحة والبلاغة تهـدفوا لسـبه ونهيه وقتله وإخراجه كما أخـبر الله عز وجل عنهم ولم يقـدروا على معارضـته بمثل القــرآن إذ لم يكن في قــدرة البشر الجمع بين جزالة القــرآن ونظمه هــذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير ممـارس للكتب والإنبـاء عن الغيب في أمـور تحقق صـدقه فيها في الاسـتقبال كقوله تعـالى لتـدخلن المسـجد الحـرام إن شـاء الله آمـنين محلقين رؤوسكم ومقصرين وكقوله ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ووجه دلالة المعجزة على صـدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى فمهما كان مقرونا بتحدي النبي صلى الله عليه وسـلم يـنزل منزلة قوله صدقت وذلك مثل القائل بين يدي الملك المـدعى على رعيته أنه رسـول الملك إليهم فإنه مهما قـال لـذلك إن كنت صـادقا فقم على سـريرك ثلاثا واقعد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله صـدقت الـركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول:

الأصل الأول الحشر والنشر حديث الحشر والنشر أخرجه الشيخان من حـديث ابن عبـاس إنكم لمحشورون إلى الله الحديث ومن حديث سهل يحشر النـاس يـوم القيامة على أرض بيضـاء الحـديث ومن حـديث عائشة يحشـرون يـوم القيامة حفـاة ومن حـديث أبي هريـرة يحشر الناس على ثلاث طرائق الحديث ولابن ماجه من حديث ميمونة مـولاة النـبي صـلى الله عليه وسلم أفتنا في بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر الحديث وإسناده جيد وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصـديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن ومعنـاه الإعـادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى قـال من يحـيي العظـام وهي رميم قل يحييها الذي أنشـأها أول مـرة فاسـتدل بالابتـداء على الإعـادة وقـال عز وجل ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول.

الأصل الثـاني سـؤال منكر ونكـير حـديث سـؤال منكر ونكـير تقـدم وقد وردت به الأخبـار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الـذي به فهم الخطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يشـاهد من سـكون أجـزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له فإن النائم سـاكن بظـاهره ويـدرك بباطنه من الآلام واللـذات ما يحس بتأثيره عند التنبه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه حديث كان يسـمع كلام جبريل ويشـاهده ومن حوله لا يسـمعونه ولا يرونه أخرجه البخـاري ومسـلم من حـديث عائشة قـالت قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يوما يا عائشة هـذا جبريل يقرئك السـلام فقلت وعليه الســـلام ورحمة الله وبركاته تـــرى ما لا أرى قلت وهـــذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم ولا يحيطـون بشـيء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه.

الأصل الثالث عذاب القبر وقد ورد الشـرع به قـال الله تعـالى النـار يعرضـون عليها غـدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعـون أشد العـذاب واشـتهر عن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر حديث استعاذ من عذاب القـبر أخرجاه من حـديث أبي هريـرة وعائشة وقد تقـدم وهو ممكن فيجب التصـديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيـور فـإن المـدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها.

الأصل الرابع الميزان وهو حق قال الله تعالى ونضع المـوازين القسط ليـوم القيامة وقـال تعالى:)فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه الآية(ووجهها أن الله

تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب.
الأصل الخامس الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى:)فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون(وهذا ممكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط.
الأصل السادس أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى:)وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين(فقوله تعالى أعدت دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.
الأصل السابع أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الإجماع وذلك مما لا يستجرىء على اختراعه إلا الروافض واعتاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبنيا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك وقد قال أفاضل العلماء كل مجتهد مصيب وقال قائلون المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلا.
الأصل الثامن أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة حديث الثناء على الصحابة تقدم وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحي والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف.
الأصل التاسع أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش لقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش حديث الأئمة من قريش أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق الأصل العاشر أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذي يبني قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الإمام وبفساد الأقضية وذلك محال ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة فالله تعالى يسددنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى.

الفصل الرابع من قواعد العقائد في الإيمـان والإسـلام وما بينهما من الاتصـال وما يتطـرق
إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل مسألة اختلفـوا في
أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غـيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به
يلازمه فقيل إنهما شـيء واحد وقيل إنهما شـيئان لا يتواصـلان وقيل إنهما شـيئان ولكن
يرتبط أحـدهما بـالآخر وقد أورد أبو طـالب المكي في هـذا كلاما شـديد الاضـطراب كثـير
التطويل فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له فنقـول
في هذا ثلاثة مباحث بحث عن موجب اللفظين في اللغة وبحث عن المراد بهما في إطلاق
الشرع وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة والبحث الأول لغوي والثاني تفسيري والثالث
فقهي شـرعي البحث الأول في مـوجب اللغة والحق فيه أن الإيمـان عبـارة عن التصـديق
قال الله تعالى وما أنت بمؤمن لنا أي بمصـدق والإسـلام عبـارة عن التسـليم والاستسـلام
بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعنـاد وللتصـديق محل خـاص وهو القلب واللسـان
ترجمان وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح فإن كل تصـديق بـالقلب فهو
تسليم وترك الإباء والجحود وكذلك الاعـتراف باللسـان وكـذلك الطاعة والانقيـاد بـالجوارح
فمـوجب اللغة أن الإسـلام أعم والإيمـان أخص فكـان الإيمـان عبـارة عن أشـرف أجـزاء
الإسلام فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا البحث الثاني عن إطلاق الشـرع
والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الـترادف والتـوارد وورد على سـبيل
الاختلاف وورد على سبيل التداخل أما الـترادف ففيقوله تعـالى فأخرجنا من كـان فيها من
المؤمـنين فما وجـدنا فيها غـير بيت من المسـلمين ولم يكن بالاتفـاق إلا بيت واحد وقـال
تعـالى يا قـوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلـوا إن كنتم مسـلمين وقـال صـلى الله عليه
وسلم بني الإسلام على خمس حديث بني الإسلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر
وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس حديث سئل
عن الإيمان فأجاببهذه الخمس أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عبـاس في قصة
وفد عبد القيس تـدرون ما الإيمـان شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسـول الله وأن
تقيمـوا الصـلاة وتؤتـوا الزكـاة وتصـوموا رمضـان وتحجـوا الـبيت الحـرام والحـديث في
الصـحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد وأن تؤتـوا خمسا من المغنم وأما الاختلاف فقوله
تعالى قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ومعنـاه استسـلمنا في الظـاهر
فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظـاهرا باللسـان والجـوارح
وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره فقال فما الإسلام
فأجاب بـذكر الخصـال الخمس حـديث جبريل لما سـأله عن الإيمـان فقـال أن تـؤمن بالله
وملائكته الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر الحسـاب
فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بـالقول والعمل وفي
الحـديث عن سـعد أنه صـلى الله عليه وسـلم أعطى رجلا عطـاء ولم يعط الآخر فقـال له
سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال صلى الله عليه وسـلم أو مسـلم
فأعاد عليه فأعاد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حـديث سـعد أعطى رجلا عطـاء ولم
يعط الآخر فقال له سـعد يا رسـول الله تـركت فلانا لم تعطه وهو مـؤمن فقـال أو مسـلم
الحديث أخرجاه بنحوه وأما التداخل فما روي أيضا أنهسئل فقيل أي الأعمـال أفضل فقـال
صلى الله عليه وسلم الإسلام فقال أي الإسلام أفضل فقال صلى الله عليه وسلم الإيمـان
حديث سئل أي الأعمال أفضل فقال الإسلام فقال أي الإسلام أفضل فقال الإيمـان أخرجه
أحمد والطـبراني من حـديث عمـرو بن عنبسة بالشـطر الأخـير فقـال يا رسـول الله أي
الإسلام أفضل قال الإيمان وإسـناده صـحيح وهـذا دليل على الاختلاف وعلى التـداخل وهو
أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها والإسلام هو تسليم
إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذي بـالقلب وهو التصـديق الـذي يسـمى
إيمانا والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله
غـير خـارج عن طريق التجـوز في اللغة أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمـان عبـارة عن
التصـديق بـالقلب فقط وهو موافق للغة والإسـلام عبـارة عن التسـليم ظـاهرا وهو أيضا

موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم فليس من شرط حصـول الاسم عمـوم المعـنى لكل محل يمكن أن يوجد المعـنى فيه فـإن من لمس غـيره ببعض بدنه يسمى لامسا وإن لم يسـتغرق جميع بدنه فـإطلاق اسم الإسـلام على التسـليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسـان وعلى هـذا الوجه جـرى قوله تعـالى قـالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسـلمنا وقوله صـلى الله عليه وسـلم في حـديث سـعد أو مسـلم لأنه فضل أحـدهما على الآخر ويريد بـالاختلاف تفاضل المسـميين وأما التداخل فموافق أيضا للغة في خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبـارة عن التسـليم بالقلب والقول والعمل جميعا والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسـلام وهو التصـديق بالقلب وهو الذي عنيناه بالتـداخل وهو موافق للغة في خصـوص الإيمـان وعمـوم الإسـلام للكل وعلى هذا خـرج قوله الإيمـان في جـواب قـول السـائل أي الإسـلام أفضل لأنه جعل الإيمان خصوصا من الإسلام فأدخله فيه وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بـأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فإن كل ذلك تسليم وكذا الإيمان ويكون التصـرف في الإيمـان على الخصـوص بتعميمه وإدخـال الظـاهر في معنـاه وهو جـائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته وقد يطلق اسم الشـجر ويـراد به الشـجر مع ثمـره على سـبيل التسـامح فيصـير بهـذا القـدر من التعميم مرادفا لاسم الإسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص وعليه خرج قوله فما وجـدنا فيها غـير بيت من المسلمين البحث الثالث عن الحكم الشرعي والإسلام والإيمان حكمان أخروي ودنيوي أما الأخروي فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان حـديث يخـرج من النـار من كـان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان أخرجـاه من حـديث أبي سـعيد الخـدري في الشـفاعة وفيه اذهبـوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه الحديث ولهما من حديث أنس فيقـال انطلق فأخرج منها من كـان في قلبه مثقـال ذرة أو خردلة من إيمـان لفظ البخـاري منهما وله تعليقا من حـديث أنس يخـرج من النـار من قـال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان وهو عندهما متصل بلفظ خير مكان إيمان وقد اختلفوا في أن هـذا الحكم على مـاذا يترتب وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقـول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة وهذه درجة الدرجة الثانية أن يوجد اثنان وبعض الثالث وهو القول والعقد وبعض الأعمال ولكن ارتكب صـاحبه كبـيرة أو بعض الكبائر فعند هـذا قـالت المعتزلة خـرج بهـذا عن الإيمـان ولم يـدخل في الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلـتين وهو مخلد في النـار وهـذا باطل كما سـنذكره الدرجة الثالثة أن يوجد التصـديق بـالقلب والشـهادة باللسـان دون الأعمـال بـالجوارح وقـداختلفوا في حكمه فقـال أبو طـالب المكي العمل بـالجوارح من الإيمـان ولا يتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشـعر بنقيض غرضه كقوله تعـالى الـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمـان لا من نفس الإيمـان وإلا فيكـون العمل في حكم المعاد والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسـلم لا يكفر أحد إلا بعد جحـوده لما أقر به حـديث لا تكفـروا أحـدا إلا بجحـود بما أقر به أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحـود ما دخل فيه وإسـناده ضـعيف وينكر على المعتزلة قـولهم بالتخليد في النـار بسـبب الكبـائر والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة إذ يقال له من صدق بقلبه وشـهد بلسـانه ومـات في الحـال فهل هو في الجنة فلا بد أن يقـول نعم وفيه حكم بوجـود الإيمـان دون العمل فنزيد ونقول لو بقي حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات فهل يخلد في النـار فـإن قـال نعم فهو مـراد المعتزلة وإن قـال لا فهو تصـريح بـأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمـان ولا شـرطا في وجـوده ولا في اسـتحقاق الجنة به وإن قـال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية فنقـول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمـان وهـذا لا يمكن التحكم بتقـديره ولم يصر إليه صـائر أصلا الدرجة

الرابعة أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسـان أو يشـتغل بالأعمـال ومـات فهل نقـول مـات مؤمنا بينه وبين الله تعـالى وهـذا مما اختلف فيه ومن شـرط القـول لتمـام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من كان في قلبه مثقـال ذرة من الإيمـان وهـذا قلبه طـافح بالإيمـان فكيف يخلد في النـار ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعـالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق الدرجة الخامسة أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمـــتي الشـــهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ونقول هو مـؤمن غـير مخلد في النـار والإيمـان هو التصـديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل اللسان حـتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفـاظ ووضع اللسـان أن الإيمـان هو عبارة عن التصديق بالقلب وقد قال صلى الله عليه وسلم يخرج من كـان في قلبه مثقـال ذرة ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسـكوت عن الفعل الواجب وقـال قـائلون القـول ركن إذ ليس كلمتا الشـهادة إخبـارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقـالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المـؤمن وإن عصى فلا يـدخل النـار وسـنبطل ذلك عليهم الدرجة السادسة أن يقول بلسانه لا إله إلا الله محمد رسول الله ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد في النار ولا نشك في أنه في حكم الـدنيا للـذي يتعلق بالأئمة والـولاة من المسـلمين لأن قلبه لا يطلع عليه وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلســـــانه إلا وهو منطو عليه في قلبه وإنما نشك في أمر ثـــــالث وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى وذلك بأن يمـوت له في الحـال قـريب مسـلم ثم يصـدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة المـوت والمـيراث الآن في يـدي فهل يحل لي بيـني وبين الله تعـالى أو نكح مسـلمة ثم صـدق بقلبه هل تلزمه إعـادة النكاح هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الـدنيا منوطة بـالقول الظـاهر ظـاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغـيره وباطنه ظـاهر له في نفسه بينه وبين الله تعـالى والأظهر والعلم عند اللهتعـالى أنه لا يحل له ذلك المـيراث ويلزمه إعـادة النكـاح ولـذلك كـان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر جنـازة من يمـوت من المنافقين وعمر رضي الله عنه كـان يـراعي ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضي الله عنه والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كـانت من العبـادات والتـوقي عن الحـرام أيضا من جملة ما يجب لله كالصـــلاة لقوله صـــلى الله عليه وســـلم طلب الحلال فريضة بعد فريضة وليس هـذا مناقضا لقولنا إن الإرث حكم الإسـلام وهو الاستسـلام بل الاستسـلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن وهـذه مبـاحث فقهية ظنية تبـنى على ظـواهر الألفـاظ والعمومـات والأقيسة فلا ينبغي أن يظن القاصر في العلـوم أن المطلـوب فيه القطع من حيث جـرت العـادة بـإيراده في فن الكلام الـذي يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العـادات والمراسم في العلـوم فـإن قلت فما شـبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم فأقول شبهتهم عمومات القرآن أما المرجئة فقالوا لا يدخل المـؤمن النـار وإن أتى بكل المعاصي لقوله عز وجل فمن يـؤمن بربه فلا يخـاف بخسا ولا رهقا ولقوله سـبحانه وتعالى والذين آمنوا بالله ورسـله أولئك هم الصـديقون الآية ولقوله تعـالى كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها إلى قوله فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء فقوله كلما ألقي فيها فوج عام فينبغي أن يكون من ألقي في النـار مكـذبا ولقوله تعـالى لا يصـلاها إلا الأشـقى الـذي كذب وتولى وهذا حصر وإثبات ونفي ولقوله تعالى من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى والله يحب المحسنين وقال تعالى إنا لا نضـــيع أجر من أحسن عملا ولا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمـــان في هـــذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة في معاقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمـــان فكيف يخـرج إذا لم يـدخل ومن القـرآن قوله تعـالى إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون

ذلك لمن يشــاء والاســتثناء بالمشــيئة يــدل على الانقســام وقوله تعــالى ومن يعص الله ورســوله فــإن له نــار جهنم خالــدين فيها وتخصيصه بــالكفر تحكم وقوله تعــالى ألا إن الظالمين في عذاب مقيم وقال تعالى ومن جـاء بالسـيئة فكبت وجـوههم في النـار فهـذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تسـليط التخصص والتأويل على الجـانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون حديث تعذيب العصاة أخرجه البخـاري من حـديث أنس ليصيبن أقواما سنع من النار بذنوب أصابوها الحديث ويـأتي في ذكر المـوت عـدة أحـاديث بل قوله تعالى وإن منكم إلا واردها كالصـريح في أن ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مـؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى لا يصـلاها إلا الأشـقى الـذي كـذب وتـولى أراد به من جماعة مخصوصـين أو أراد بالأشـقى شخصا معينا أيضا وقوله تعـالى كلما ألقي فيها فـوج سـألهم خزنتها أي فـوج من الكفـار وتخصـيص العمومـات قـريب ومن هـذه الآية وقع للأشـعري وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العمـوم وأن هـذه الألفـاظ يتوقف فيها إلى ظهـور قرينة تـدل على معناها وأما المعتزلة فشـبهتهم قوله تعـالى وإني لغفـار لمن تـاب وآمن وعمل صـالحا ثم اهتـدى وقوله تعـالى والعصر إن الإنســان لفي خسر إلا الــذين آمنـوا وعملـوا الصالحات وقوله تعـالى وإن منكم إلا واردها كـان على ربك حتما مقضيا ثم قـال ثم ننجي الذين اتقـوا وقوله تعـالى ومن يعص الله ورسـوله فـإن له نـار جهنم وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصـالح فيها مقرونا بالإيمـان وقوله تعـالى ومن يقتل مؤمنا متعمـدا فجـزاؤه جهنم خالدا فيها وهذه العمومات أيضا مخصوصة بـدليل قوله تعـالىويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ما سوى الشرك وكـذلك قوله صـلى الله عليه وسلم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وقوله تعـالى إنا لا نضـيع أجر من أحسن عملا وقوله تعالى إن الله لا يضيع أجر المحسنين فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة وقوله تعـالى ومن يقتل مؤمنا متعمـدا أي لإيمانه وقد ورد على مثل هذا السبب فـإن قلت فقد مـال الاختيـار إلى أن الإيمـان حاصل دون العمل وقد اشتهر عن السلف قـولهم الإيمـان عقد وقـول وعمل فما معنـاه قلنا لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسـان ومعلـوم أنه يخـرج عن كونه إنسانا بعدم الـرأس ولا يخـرج عنه بكونه مقطـوع اليد وكـذلك يقـال التسـبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدها فالتصـديق بـالقلب من الإيمـان كـالرأس من وجود الإنسان إذ ينعـدم بعدمه وبقية الطاعـات كـالأطراف بعضـها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريـرة والصـحابة رضي الله عنهم ما اعتقـدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كــاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطـراف هـذا ليس بإنسـان أي ليس له الكمـال الـذي هو وراء حقيقة الإنســانية مســألة فــإن قلت فقد اتفق الســلف على أن الإيمــان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فإذا كان التصـديق هو الإيمـان فلا يتصـور فيه زيـادة ولا نقصـان فأقول السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشــأن في فهمه وفيه دليل على أن العمل ليس من أجـزاء الإيمـان وأركـان وجـوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجـود والنـاقص موجـود والشــيء لا يزيد بذاته فلا يجـوز أن يقــال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسـمنه ولا يجـوز أن يقـال الصـلاة تزيد بـالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجـود ثم بعد الوجـود يختلف حاله بالزيادة والنقصان فإن قلت فالإشـكال قـائم في أن التصـديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة فـأقول إذا تركنا المداهنة ولم نكـترث بتشـغيب من تشـغب وكشـفنا الغطـاء ارتفع الإشــكال فنقــول الإيمـــان اسم مشـــترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول أنه أنه يطلق للتصديق بالقلب على سـبيل الاعتقـاد والتقليد من غـير كشف وانشـراح صـدر وهو إيمـان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشـتد وتقـوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلا ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهـان وكـذلك النصـراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشـكيكه بـأدنى كلام ويمكن اسـتنزاله عن

اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتــان في شدة التصميم وهـذا موجـود في الاعتقـاد الحق أيضا والعمل يـؤثر في نمـاء هـذا التصـميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ولذلك قال الله تعالى فـزادتهم إيمانا وقـال تعالى ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم وقال صـلى الله عليه وسـلم فيما يـروى في بعض الأخبـار الإيمان يزيد وينقص حـديث الإيمـان يزيد وينقص أخرجه ابن عـدي في الكامل وأبو الشـيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدي باطل فيه محمد بن أحمد بن حـرب الملحي يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء وذلك بتــأثير الطاعـات في القلب وهــذا لا يدركه إلا من راقب أحــوال نفسه في أوقــات المواظبة على العبـادة والتجـرد لها بحضـور القلب مع أوقـات الفتـور وإدراك التفـاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقـده استعصـاء على من يريد حله بالتشـكيك بل من يعتقد في اليـتيم معـنى الرحمة إذا عمل بمـوجب اعتقـاده فمسح رأسه وتلطف به أدركمن باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسـبب العمل وكـذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجدا لغـيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعـود أثر الأعمـال عليها فيؤكـدها ويزيدها وسيأتي هـذا في ربع المنجيـات والمهلكـات عند بيـان وجه تعلق البـاطن بالظـاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعـني بالملك عـالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عــالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخـرون أنه لا عـالم إلا عـالم الشـهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عـبر عنه فقـال رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر فكأنما خمر ولا قــدح وكأنما قــدح ولا خمر ولــنرجع إلى المقصــود فــإن هــذا العلم خــارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضا اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علــوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيـادة الإيمـان بالطاعة بمـوجب هـذا الإطلاق ولهـذا قـال علي كرم الله وجهه إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فـإذا عمل العبد الصـالحات نمت فـزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حـتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى كلا بل ران على قلـوبهم الآية الإطلاق الثاني أن يراد به التصديق والعمل جميعا كما قال صـلى الله عليه وسـلم الإيمـان بضع وسـبعون بابا حـديث الإيمـان بضع وسـبعون بابا وذكر بعد هـذا فـزاد فيه أدناها إماطة الأذى عن الطريق أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة الإيمان بضع وسبعون زاد مسلم في رواية وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها فذكره ورواه بلفظ المصـنف الترمـذي وصححه وقال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مـؤمن وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يـؤثر ذلك في زيـادة الإيمـان الـذي هو مجرد التصـديق هـذا فيه نظر وقد أشـرنا إلى أنه يـؤثر فيه الإطلاق الثـالث أن يـراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنـور البصـيرة وهـذا أبعد الأقسـام عن قبـول الزيـادة ولكـني أقـول الأمر اليقيـني الـذي لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقينيـات تختلف في درجـات الإيضـاح ودرجات طمأنينة النفس إليها وقد تعرضنا لهـذا في فصل اليقين من كتـاب العلم في بـاب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق وكيف وفي الأخبار أنه يخرج من النار من كـان في قلبه مثقـال ذرة من إيمان وفي بعض المواضع في خبر آخر مثقال دينار حديث يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار متفق عليه من حديث أبي سعيد وسيأتي ذكر المـوت وما بعـده فـأي معـنى لاختلاف مقـاديره إن كـان ما في القلب لا يتفـاوت مسـألة فـإن قلت ما وجه قـول السـلف أنا مـؤمن إن شـاء الله والاسـتثناء شك والشك في الإيمـان كفر وقد كـانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه فقال سفيان الثوري رحمه الله من قال

أنا مؤمن عند الله فهو من الكـذابين ومن قـال أنا مـؤمن حقا فهو بدعة فكيف يكـون كاذبا وهو يعلم أنه مـؤمن في نفسه ومن كـان مؤمنا في نفسه كـان مؤمنا عند الله كما أن من كان طويلا وسخيا في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكـذا منكـان مسـرورا أو حزينا أو سميعا أو بصيرا ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شـاء الله ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا نقول قال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأي فـرق بين أن يقـول آمنا بالله وما أنـزل إلينا وبين أن يقـول أنا مـؤمن وقيل للحسن أمـؤمن أنت فقال إن شاء الله فقيل له لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمـان فقـال أخـاف أن أقـول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق علي الكلمة وكان يقول ما يؤمنني أن يكـون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكـره فمقتـني وقـال اذهب لا قبلت لك عملا فأنا أعمل في غير معمل وقال إبراهيم بن أدهم إذا قيل لك أمؤمن أنت فقل لا إله إلا الله وقال مرة قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة وقيل لعلقمة أمؤمن أنت قال أرجو إن شـاء الله وقـال الثـوري نحن مؤمنـون بالله وملائكته وكتبه ورسـله وما نـدري ما نحن عند الله تعالى فما معنى هذه الاستثناءات فالجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه وجهـان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في خاتمته أو كماله ووجهان لا يستندان إلى الشك الوجه الأول الذي لا يستند إلى معارضة الشك الاحـتراز من الجـزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى فلا تزكـوا أنفسـكم وقـال ألم تر إلى الـذين يزكـون أنفسـهم وقال تعالى انظر كيف يفترون على الله الكذب وقيل لحكيم ما الصـدق القـبيح فقـال ثنـاء المرء على نفسه والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم تزكية مطلقة وصـيغة الاسـتثناء كأنها ثقل من عرف التزكية كما يقال للإنسان أنت طبيب أو فقيه أو مفسر فيقـول نعم إن شـاء الله لا في معـرض التشـكيك ولكن لإخـراج نفسه عن تزكية نفسه فالصـيغة صـيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف اللازم من لوازم الخـبر وهو التزكية وبهـذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء الوجه الثاني التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سـبحانه فقد أدب الله سـبحانه نبيه صـلى الله عليه وسلم فقال تعالى ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قـال تعـالى لتـدخلن المسـجد الحـرام إن شـاء الله آمـنين محلقين رءوسكم ومقصرين وكـان الله سـبحانه عالما بـأنهم يـدخلون لا محالة وأنه شـاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما كـان يخـبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون حديث لما دخل المقابر قـال السـلام عليكم دار قوم مؤمنين الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة واللحـوق بهم غـير مشـكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعـالى وربط الأمـور به وهـذه الصـيغة دالة عليه حـتى صـار بعـرف الاسـتعمال عبـارة عن إظهـار الرغبة والتمـني فـإذا قيل لك إن فلانا يمـوت سـريعا فتقول إن شـاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشـككك وإذا قيل لك فلان سـيزول مرضه ويصح فتقـول إن شـاء الله بمعـنى الرغبة فقد صـارت الكلمة معدولة عن معـنى التشـكيك إلى معـنى الرغبة وكـذلك العـدول إلى معـنى التـأدب لـذكر الله تعـالى كيف كـان الأمر الوجه الثـالث مسـتنده الشك ومعنـاه أنا مـؤمن حقا إن شـاء الله إذ قـال الله تعـالى لقـوم مخصوصين بأعيانهم أولئك هم المؤمنون حقا فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله وكل إنسان شـاك في كمـال إيمانه وذلك ليس بكفر والشك في كمال الإيمان حق من وجهين أحدهما من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمـال أما العمل فقد قال الله تعالى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتـابوا وجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون فيكونالشك في هذا الصدق وكـذلك قال الله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليـوم الآخر والملائكة والكتـاب والنبـيين فشـرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى أولئك الـذين صـدقوا وقد قال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتـوا العلم درجـات وقـال تعـالى لا يسـتوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل الآية وقد قال تعالى هم درجات عند الله وقـال صـلى

الله عليه وسـلم الإيمـان عريـان ولباسه التقـوى حـديث الإيمـان عريـان تقـدم في العلم الحـديث وقـال صـلى الله عليه وسـلم الإيمـان بضع وسـبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بـالبراءة عن النفـاق والشرك الخفي فقوله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صـام وصـلى وزعم أنه مـؤمن من إذا حـدث كـذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خـان وإذا خاصم فجر حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حـديث عبد الله بن عمـرو وفي بعض الروايات وإذا عاهد غدر وفي حديث أبي سعيد الخدري القلوب أربعة قلب أجرد وفيه سـراج يزهر فـذلك قلب المـؤمن وقلب مصفح فيه إيمـان ونفـاق فمثل الإيمـان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمـدها القيح والصـديد فـأي المادتين غلب عليه حكم له بها حديث القلـوب أربعة قلب أجـرد الحـديث أخرجه أحمد من حـديث أبي سـعيد وفيه ليث بن أبي سـليم مختلف فيه وفي لفظ آخر غلبت عليه ذهبت به وقال عليه السلام أكثر منافقي هـذه الأمة قراؤها حـديث أكـثر منـافقي هـذه الأمة قراؤها أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفي حديث الشرك أخفى في أمـتي من دبيب النمل على الصفا حديث الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصـفا أخرجه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضـعفاء من حـديث أبي بكر ولأحمد والطـبراني نحـوه من حـديث أبي موسى وسـيأتي في ذم الجـاه والريـاء وقـال حذيفة رضي الله عنه كـان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يصـير بها منافقا إلى أن يموت وإني لأسـمعها من أحـدكم في اليـوم عشر مـرات حـديث حذيفة كـان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصـير بها منافقا الحـديث أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة وحديث حذيفة المنـافقون اليـوم أكـثر منهم على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم الحديث أخرجه البخاري إلا أنه قال شر بدل أكثر وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفـاق وقـال حذيفة المنـافقون اليـوم أكـثر منهم على عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم فكـانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليـوم يظهرونه وهـذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله وهو خفي وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقـربهم منه من يرى أنه برىء منه فقد قيل للحسن البصري يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق وقال هو أو غيره لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلا يتعرض للحجـاج فقـال أرأيت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه فقال لا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حـديث سـمع ابن عمر رجلا يتعـرض للحجـاج فقـال أرأيت لو كـان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم رواه أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج وقال صلى الله عليه وسلم من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة وقال أيضا صلى الله عليه وسـلم شر الناس ذو الـوجهين الـذي يـأتي هـؤلاء بوجه ويـأتي هـؤلاء بوجه وقيل للحسن إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق فقال والله لأن أكـون أعلم أني بـريء من النفـاق أحب إلي من تلاع الأرض ذهبا وقـــال الحسن إن من النفـــاق اختلاف اللســـان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه إني أخـاف أن أكـون منافقا فقـال لو كنت منافقا ما خفت النفـاق إن المنـافق قد أمن النفـاق وقـال ابن أبي مليكة أدركتثلاثين ومائة وفي رواية خمسـين ومائة من أصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسـلم كلهم يخـافون النفـاق وروى أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كـان جالسا في جماعة من أصـحابه فذكروا رجلا وأكثروا الثناء عليه فبيناهم كـذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر مـاء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يا رسول الله هـذا هو الرجل الذي وصفناه فقال صلى الله عليه وسلم أرى على وجهه سفعة من الشيطان فجاء الرجل حتى سـلم وجلس مع القـوم فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم نشـدتك الله هل حـدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك فقال اللهم نعم حديث كان جالسا في جماعة من أصـحابه فـذكروا رجلا فـأكثروا الثنـاء عليه فبينما هم كـذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر مـاء من أثر الوضـوء الحـديث أخرجه أحمد والـبزار والـدار قطـني من

حديث أنس فقال صلى الله عليه وسلم في دعائه اللهم إني أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم فقيل له أتخاف يا رسول الله فقال وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد قال سبحانه وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون حديث اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم الحديث أخرجه مسلم من حديث عائشة اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم قيل في التفسير عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات وقال سرى السقطي لو أن إنسانا دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة فقال السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيرا في يديها فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين وقال أبو سليمان الداراني سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فكففت وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله فالنفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار والثاني يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية والأمن من مكر الله والعجب وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصديقون الوجه الرابع وهو أيضا مستند إلى الشك وعند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار وقال بعضهم لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد وفي الحديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل أخرجه الطبراني في الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم والشطر الأول روي من قول يحيى بن أبي كثير رواه الطبراني في الأصغر بلفظ من قال أنا في الجنة فهو في النار وسنده ضعيف وقيل في قوله تعالى وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك وقد قال تعالى ولله عاقبة الأمور فمهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرىء الذمة وما فسد قبل الغروب لا يبرىء الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقي هو المقبول والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكا في القبول إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفيفة لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به كتاب قواعد العقائد تم الكتاب بحمد الله تعالى و على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى.